فقه التمكين
في
القرآن الكريم

أعداد

د. إبراهيم رشاد محمد صبري

مدرس أصول الفقه

كلية الآداب قنا جامعة جنوب الوادي

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشـرف المرسـلين ، سيدنا محمد ﷺ .

ثم أما بعد ،،

فإن الأمة الإسلامية تمر بفترة عصيبة من تاريخها ، فهي في أشـد الحاجة لفهم فقه التمكين ، حتى ترسم أهدافها ، وتسعى لتحقيق آمالها وفق سنن الله الجارية في الشعوب والأمم والمجتمعات والدول والحضارات .

ولقد لاحظت في قراءتي للقرآن الكريم أن أصـول فقـه التمكيـن واضحة المعالم في كتاب الله الكريم ، فمـا علـى البـاحث إلا أن يجمعـها ويرتبها ويحللها ، ويبين أثرها في حياة الأمة عند تطبيقـها فـي شـؤون حياتها ، وماذا أصابها عندما ابتعدت عن كتاب ربـها وسـنة نبيـها . إن وصول الأمة الإسلامية في هذا الزمان إلى التمكين ليس سهلاً ، ولكنه كذلك ليس مستحيلاً إذا هي حرصت على تطبيق معالم فقه التمكين .

ولقد تحدث الناس عن مشاكل الأمة ، وفساد أحوالـها ، بصـورة تنشر اليأس ، وتشيع روح الهزيمة بين أبناء الأمة الغيورين ، حيث كـثرة الأعداء ، والعوائق الصعبة ، والكفاح الطويل ، وربما صاح النـاس وهـم يودعون محنة ويستقبلون أخرى ، أما لهذا الليل الطويل من آخر ؟ ولكـن الفجر سيطلع حتماً ، ولأن يطوينا الليل مكافحين أشـرف مـن أن يطوينـا راقدين .

إن أسباب نهضة العالم الإسلامي بيـد المسـلمين أنفسـهم ، وإن عوامل التعويق من جانب القوة المعادية لن يكـون لـها أي قيمـة حينمـا يتمسك المسلمون إلى بدينهم،"وإن المتتبع للمراحل التي مرت بـها الأمـة الإسلامية يدرك أن أعداءنا لم يعوقونا عن الانطـلاق فـي أغلـب مراحـل تخلفنا،بل نحن الذيـن فرطنا وتكاسلنا وتركنا المجال فسيحاً أمـام غيرنـا، فملأوه لما أخليناه" [1].

والثابت تاريخياً أنه ما انتصرت أمة أو انهزمت إلا بفعل العوامـل والأسباب الداخلية ، ولم تكن العوامل الخارجية إلا متممة ومكملة للداخلية ، ولعل هذا ما كان يطلق عليه مالك بن نبي القابلية للاستعمار ، ويـرى أنـه العامل الأكبر في هزيمة المسلمين في العصر الحديث.

ومن سنة الله في البشر أن كل ما يصيبهم مـن بـلاء وأذى فـي الأنفس والأبدان وشئون الملك والسلطان إنما هي آثار للأعمـال ، ونتـائج

---

[1] الطريق من هنا : محمد الغزالي – دار التوزيع والنشر – ص ٧٩ .

للسلوك الفاسد ، مع وجود عفو الله عن الكثير كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [1].

وربما قلنا إننا نحن قبل غيرنا العقبة الأولى أمام تحقق معنى هذا الدين العظيم ورسالته . وإن التحدي الأول ينبع من داخل أرضنا ، ثم تجيء من بعده تحديات الأعداء التقليديين . إن الأمة الإسلامية تستطيع أن تستأنف مسيرتها في أي لحظة مهما اشتد الكرب وعظم البلاء ، إنها تستطيع ذلك إذا خلصت النية وصدق الإيمان ، وطهرت القلوب ، وأمامنا حديث رسول الله ﷺ ، ما يجب علينا أن نتدبره ، إذ يقول ﷺ " إن الله زوى لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها . وأعطيت الكنزين ، الأحمر والأبيض ، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة ولو اجتمع عليهم من بأقطارها – أو قال : من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، ويسبي بعضهم بعضاً " [2].

إن التمكين لدين الله في الأرض دعوة إلهية للإنسانية كي يظهر هذا الدين الخاتم على الدين كله ، قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [3].

وقد سن الله في القرآن للتجدد الحضاري والخروج من التخلف سنتين : التغيير الذاتي والإعداد العام .

وبدون الأخذ بهاتين السنتين لن تبدأ حركة التاريخ سيرتها ، ولن تستأنف الحضارة دورها في التعمير وتحقيق الاستخلاف والتمكين ، والدفع بالأمة إلى المواقع الأمامية التي تجاوزتها فيها قيادات الأمم الأخرى ، ذلك أن التغيير الذاتي يعني التغيير الداخلي للأنفس ، وهذه هي القاعدة الأولى الأساسية في أي بناء حضاري ، ويقف على هذه القضية التي هي محور سنن التغيير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [4].

فالله لا يسلب نعمة عن قوم أنعمها عليهم ويستبدل بها نقمة إلا بعد أن يغير القوم ما بأنفسهم من نوايا ومقاصد داخلية تنتج عنها أخلاق وتصرفات في الأعمال والمواقف ، فتنقلب الأوضاع وتتبدل الأحوال الخارجية الظاهرة للقوم . فسنة الله تجري وفق هذا التلازم [4]، قال تعالى :

---

[1] الشورى : الآية (٢٨).

[2] رواه مسلم في صحيحه – كتاب الفتن – باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض .
زوى : ضم وجمع – الكنزين الأحمر والأبيض : الذهب والفضة والمراد : كنزا كسرى وقيصر – سنة عامة : قحط يعمهم أو هلاك يستأصلهم .

[3] الصف : الآية (٩) .

[4] الرعد : الآية (١١) .

[4] راجع : في ظلال القرآن – سيد قطب – دار الشروق – جـ٣ ص١٥٣٦ .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١).

والتغير الذاتي للفرد عملية شاملة تمس كل مكوناته الروحية المعنوية ، والبدنية الجسدية ، مع الأخذ بقانون أو مبدأ الأولويات على قدر درجة الفعالية (٢).

أما عن *سنة الإعداد العام* : وهو القانون الثاني في التجدد ، فهي مستنبطة من قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ (٣).

وآية التغيير مع آية الإعداد بينهما ترابط وثيق ، وتكامل قوي ، ذلك أن الإعداد الشامل لن يتحقق إلا بوجود التغيير الشامل للإنسان ، ولتهيئته التهيؤ الكلي لأداء الدور المرتقب منه في تعمير الأرض ، والالتزام بسنن الاستخلاف والتمكين بالوصول إلى التعبد الكامل لله وحده وإخلاص النية ، بالتحرر من كل المعبودات الأخرى كالهوى والعجب وغير ذلك .

لقد أشار القرآن الكريم إلى *شروط التمكين* في قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ (٤).

وأشار القرآن إلى *أهداف التمكين* في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (٥).

كما أشار القرآن إلى الأسباب التي تؤدي إلى التمكين وحثنا إلى الأخذ بها ، فقال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (٦).

---

(١) الأنفال : الآية (٥٣) .
(٢) راجع : العقل المسلم والرؤية الحضارية – عماد الدين خليل – دار الحرمين للنشر – ص٤٣ .
(٣) الأنفال : الآية (٦٠) .
(٤) النور : الآية (٥٥)
(٥) الحج : الآية (٤١) .
(٦) الأنفال : الآية (٦٠) .

ومن سنن الله أن الباطل لا يدوم ، لأنه ليس له في الحقيقة ما يؤيده ويؤازره ، وإذا جاء الحق فإنه لا يلبث أن يدفع الباطل ، وتكون للحق العاقبة كما قال تعالى : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (١).

والباطل ذاته لا يحمل عوامل بقائه ، لأنه ليس لديه قابلية الاستمرار كثيراً كما قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ (٢).

وسنن الله حاكمة في رسله وأنبيائه ، كما هي حاكمة على سائر البشر والخلق أجمعين ، ومن هنا فينبغي على الذين يسعون إلى التحضر والنصر أن يستنبطوا سنن الله من تاريخ الذاهبين ليعرفوا أحوال الأمم الهالكة ثم يعتبروا بها ، ودراسة أحوال الأمم ، ومعرفة سنن وأسباب عزتها وثباتها وتمكينها ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ (٣). والوهن هو الضعف في العمل والرأي ، والحزن ألم يعرض للنفس إذا فقدت ما تحب ، ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، لأن الإيمان يقتضي الصبر والثبات ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (٤). ومعنى *نداولها* : نصرفها ، فتكون الدولة فيه لهؤلاء مرة ولهؤلاء مرة .

وبهذا فالتداول سنة من سنن الله في الاجتماع البشري ، فلا غرو أن تكون الجولة مرة للمبطل ، ومرة للمحق ، وإنما النصر في النهاية دائماً لصاحب الحق ، فله العاقبة، وأهل الحق يرثون أهل الباطل وقد يكون الأمر بالعكس على سبيل التداول المؤقت بين الأمم ، وهو سنة من تلك السنن التي خلت ، والمداولة في الواقع تكون مبنية على أعمال الناس ، ولا تكون لفريق دون آخر جزافاً ، وإنما تكون لمن عرف أسبابها وفقه سنتها ورعاها حق رعايتها .

أسباب اختياري للموضوع :

أولاً : بيان أهمية التمكين في حياة الأمة الإسلامية ، وأنه ضمن رسالتها الاستخلافية .

ثانياً : معرفة أسباب زوال التمكين ، وكيف يعود ؟ وما شروطه ووسائله ؟

---

(١) الإسراء : الآية (٨١) .
(٢) الرعد : الآية (١٩) .
(٣) آل عمران : الآية (١٣٩) .
(٤) آل عمران : الآية (١٣٩) .

ثالثا : عودة الثقة والأمل إلى الأمة رغم ما تعانيه من أزمات بدلاً من إشاعة اليأس والهزيمة النفسية بين صفوف أبنائها .

رابعا : بيان منهج الله للأمة الإسلامية – في كتابه العزيز – للتمكين كما وعد .

خامسا : الرغبة في بحث يجمع بين الأصالة والمعاصرة ، فيقدم ما ينفع لعصرنا من أقوال العلماء والمفسرين للاستعانة به في حل المشكلة التي تتعرض لها الأمة في سعيها لاستعادة مكانتها بين الأمم ، والوظيفة المنوطة بها .

منهجي في البحث :

أولاً : الرجوع إلى المصادر الأصلية في البحث ما استطعت إلى ذلك سبيلاً .

ثانياً : عزو الأقوال إلى قائليها ، والتأكد منها في مصدرها الأصلي .

ثالثاً : الحرص على تدعيم البحث بالنصوص الشرعية .

رابعاً : بيان مواضع الآيات القرآنية في المصحف الشريف ، وذلك بذكر اسم السورة ورقم الآية .

خامساً : تخريج الأحاديث النبوية الواردة .

سادساً : وضع فهرس المصادر .

خطتي في الموضوع :

بيان وتوضيح معنى التمكين ، وشروطه التي أشار إليها القرآن الكريم في سورة النور (آية ٥٥) ، وكذلك أهدافه المذكورة في سورة الحج (آية ٤١) ، والأسباب التي تؤدي إلى التمكين التي حث القرآن عليها من خلال سورة الأنفال (آية ٦٠) .

لقد قمت بدراسة الآيات السابقة والوقوف أمامها مستعيناً في ذلك بالله تعالى ، ثم بأقوال العلماء والمفسرين لنسترشد بها في معالجة واقع المسلمين المعاصر حتى يتضح شيء من معالم فقه التمكين الذي نحن في أشد الحاجة إليه .

نسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة .

معنى فقه التمكين لغة واصطلاحاً :

الفقه لغة : الفهم والفطنة والعلم [١].

الفقه في الاصطلاح : العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية [٢].

أو : هو العلم بالأحكام الشرعية الفرعية العملية المستنبطة من أدلتها التفصيلية [٣].

التمكين لغة : التمكين مصدر تمكن – يقال : فلان تمكن عند الناس أي علا شأنه . وتمكن من الشيء : قدر عليه أو ظفر به .

والمكنة : القدرة ، والاستطاعة ، والنصرة ، والشدة [٤].

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾[٥].

التمكين في الاصطلاح : لم أعثر على تعريف جامع له ، وإنما شروح متعددة مثل : تعريف التمكين بأنه : دراسة الأسباب التي أدت إلى زوال التمكين عن الأمة الإسلامية ، والمقومات التي بها ترجع الأمة إلى التمكين ، والعوائق التي تعترض العمل للتمكين ، ودراسة طبيعة الطريق إلى التمكين ، وكذلك المبشرات على هذا الطريق ، وذلك كله في ضوء القرآن الكريم مع الاستعانة بأحاديث النبي ﷺ [٦].

وتعريف آخر بأن التمكين : "هو الهدف الأكبر لكل مفردات العمل من أجل الإسلام ، فالدعوة بكل مراحلها وأهدافها ووسائلها ، والحركة وكل ما يتصل بها من جهود وأعمال ، والتنظيم وما يستهدفه في الدعوة والحركة ، والتربية بكل أبعادها وأنواعها وأهدافها ووسائلها ، بحيث لا يختلف على ذلك الهدف الأكبر أحد من العاملين من أجل الإسلام ، كل العاملين مهما اختلفت برامجهم – بشرط أن تكون هذه البرامج والخطط نابعة من القرآن والسنة المطهرة ، وليس فيها شيء ما يغضب الله – لا يستطيعون أن يختلفوا في أن التمكين لدين الله في الأرض هو الهدف الأكبر في كل عمل إسلامي " [٧].

---

(١) المعجم الوسيط – مجمع اللغة العربية بالقاهرة – مادة (فقه) – جـ٢ ص٧٢٤ .

(٢) المفردات – للراغب الأصفهاني – تحقيق محمد السيد كيلاني– دار المعرفة بيروت – ص٣٨٤ .

(٣) شرح الكوكب المنير – للفتوحي – دار العبيكان س– جـ٢ ص٧٢٤ .

(٤) المعجم الوسيط – مادة (م ك ن) .

(٥) الكهف : الآية (٨٤) .

(٦) التمكين للأمة الإسلامية – محمد السيد يوسف – دار السلام –القاهرة – ص١٣ .

(٧) فقه المسئولية – علي عبد الحليم – دار التوزيع والنشر ، القاهرة – ص ٣٥٨ .

ويمكن تعريف التمكين : بأسلوب مختصر جامع فنقول :

"هو استعادة الأمة الإسلامية لمكانتها من السلطة والنفوذ والمكانة في حياة الناس".

هذا تعريف التمكين باعتباره مركباً إضافياً ، *ويمكن تعريفه باعتباره العلمية بأنه* : فهم ودراسة الأسباب التي تؤدي إلى استعادة الأمة الإسلامية لمكانتها ورسالتها في حياة الناس عامة .

شروط التمكين

الشروط الأساسية التي شرطها الله لتمكين أمة الإسلام واضحة في كتاب الله ، وهي وعد من الله تعالى متى حقق المسلمون هذه الشروط ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [1].

وعد الله الذين آمنوا إن هم عملوا الصالحات بينهم وبين ربهم ليستخلفنهم كما استخلف الذين من قبلهم .

وإن الاستخلاف وعد من وعود الله التي لا تتخلف للذين آمنوا وعملوا الصالحات في كل عصر ، والإيمان والعمل الصالح من سنن الاستخلاف في الأرض .

ومن سنة الله في استخلاف الدول والأفراد والأمم ، أن يكون المستخلف أهلاً وكفأ لما استخلف فيه أو عليه ، أما ما نراه من امتلاك أو استخلاف قائماً على غير هذه السنن المبينة ،فإنما هو اغتصاب لحقوق أخذت من أهلها وذويها قوة وعنوة ولأسباب ذاتية فيهم .

والاستخلاف أمر اختياري كسبي يستطيع أهله الحصول عليه إن سلكوا سننه وقاموا بتكاليفه ، وتحققت فيهم شروطه .

فالاستخلاف إذن هو حق من حقوق المؤمنين الذين يعملون الصالحات ،عليهم أن يسعوا لنيله واسترداده من أمم الأرض المغتصبة له .

وإذا تحقق الاستخلاف وفق سننه هذه ، وبشروطه الصحيحة ، كان ذلك عاملاً ، وسنة من سنن التمكين في الأرض ، حيث قرن الأمران في الآية السابقة ، وجاء التمكين نتيجة مطردة ، وقضية حتمية بعد الاستخلاف ، ولتلازم الأمرين فقد تحدث الله تعالى في هذه الآية عن التمكين بعد الحديث عن الاستخلاف ، وعطف بينهم فقال تعالى : " وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ

---

[1] النور : الآية (٥٥) .

الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ " ولعل اللامين في " ليستخلفنهم " وفي " ليمكنن" لام الاستقبال والتوكيد ، تدل على حتمية وضرورة الاستخلاف والتمكين إنما يكون للذين سلكوا سنتهما ، وعرفوا طريقهما ، وذلك وعد من وعود الله للمسلمين [1].

أما التمكين وهو مستوى ثان بعد الاستخلاف فله سنن وشروط لا يتحقق إلا وفقها ، ولا ينال إلا بمقتضاها ، نستقريها من الآية القرآنية [2].

ولقد أشارت الآية إلى شروط التمكين وهي : الإيمان بالله ، والعمل الصالح ، والعبادة . وهي شروط أساسية وعد الله بها الأمة ، فإن قامت بها حق القيام ، حصل لها التمكين ، وإن فرطت فيها ، زال عنها التمكين وتملكها الخوف .

لذلك لابد من التفصيل في هذه الشروط ، وبيان اقتراب الأمة أو بعدها من هذه الأمور الثلاثة .

أولاً : الإيمان بالله

الإيمان حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول ﷺ ، والتصديق به عقداً ، والإقرار به نطقاً ، والانقياد له محبة وخضوعاً ، والعمل به باطناً وظاهراً ، وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان [3].

فحقيقة الإيمان هو التصديق بالقلب والنطق بالشهادتين ، والعمل بالجوارح والأركان ، أي هو : اعتقاد ، وقول ، وعمل .

ويؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [4].

فقد جمعت هذه الآيات – وهي تعرض صفات المؤمنين – بين عمل القلب وعمل الجوارح ، واعتبرت هذا كله إيماناً .

إن آيات القرآن التي قرنت بين الإيمان وعمل الصالحات ، واعتبرت الأمرين من حقيقة الإيمان كثيرة منها :

---

[1] راجع : سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها – محمد هيثور ص٢٩٣ – المعهد العالمي للفكر الإسلامي – القاهرة ١٤١٧هـ ، ١٩٩٦م .

[2] النور : الآية (٥٥) موضوع دراستنا في شروط التمكين .

[3] الفوائد – لابن القيم – دار الدعوة بالإسكندرية – ص ١٤٧ .

[4] الأنفال : الآيات (٢-٤) .

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنْ تَـابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ [1]، وقولـه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَـلاً ﴾ [2]، وقوله ﴿ إِلاَّ مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ [3].

والنطق بالشهادتين – وهي كلمة التوحيد – من حقائق الإيمـان ، ومعناها : لا معبود بحق إلا الله ، وبذلك تنفي الألوهية عمـا سـوى الله ، وتثبتها لله وحده [4]. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : ليس للقلـوب سـرور ولا لذة إلا في محبة الله ، والتقرب إليه بما يحبـه ، ولا تمكـن محبتـه إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه ، وهذا حقيقة " لا إله إلا الله " وهـي ملـة إبراهيم الخليل عليه السلام وسائر الأنبياء المرسـلين صـلاة الله وسـلامه عليهم أجمعين [5].

أما شقها الثاني : " محمد رسول الله " فمعناه تجريـد متابعتـه ﷺ فيما أمر ، والانتهاء عما نهى عنه . ويقول الإمام ابن القيم : " والتصديـق بلا إله إلا الله يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقها ، وهي شرائع الإسلام التـي هي تفصيل هذه الكلمة ، بالتصديق بجميع أخبـاره ، وامتثـال أوامـره ، واجتناب نواهيه ، فالمصدق بها على الحقيقة هو الذي يأتي بذلـك كلـه ، ومعلوم أن عصمة المال والدم على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبالقيام بحقها ، وكذلك النجاة من العذاب على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبحقها " [6].

وقد أخبرنا الرسول ﷺ عن مكانة الشهادتين في حديثـه الشـريف الذي رواه أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : " أشهد أن لا إلـه إلا الله ، وأني رسول الله ، لا يلقى الله بها عبد غير شاك فيها إلا دخل الجنة " [7].

إن الإيمان بالله والحب في الله ، وما يترتب عليهما قواعد متلازمـة ينبني بعضها على الآخر ، ويتأثر اللاحق منها بالسابق ، فإذا قوى الإيمـان في نفس المؤمن ازداد الحب في الله ، وازدادت الأفعال المترتبة على ذلـك ، حتى تصبح الجماعة المسلمة كأعضاء الجسد الواحد ، تعمل لغرض واحـد ،

---

[1] مريم : الآية (٦) .
[2] الكهف : الآية (٣٠)
[3] سبأ : الآية (٣٧) .
[4] فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد – عبد الرحمن بن حسن آل الشـيخ – المكتبـة السلفية – المدينة المنورة– ص ٣٦.
[5] مجموع الفتاوى – لابن تيمية – جـ٢٨ ، ص٣٢ .
[6] التبيان في أقسام القرآن – لابن القيم – مكتبة المتنبي – ص ٤٣ .
[7] رواه مسلم : كتاب الإيمان – باب الدليل على أن من مات على التوحيـد دخـل الجنة قطعا .

وهدف واحد ، وفي إطار واحد ، عند ذلك تصبح الجماعة المسلمة بنية حية قوية صامدة قادرة على أداء رسالتها ، ودورها العظيم في حق نفسها ، وفي حق البشرية جمعاء [1].

ذلك هو الإيمان الذي يجعله الله مقوماً أساسياً من مقومات التمكين ، إنه الإيمان الذي يستقر في القلب ، والعلم الذي يملأ الصدر ، والنهج الذي يمضي عليه المؤمنون ، "إنه الإيمان الصادق الذي يقر في القلب تصديقاً ويقيناً ، ويفيض على الجوارح سلوكاً وعملاً ، إنه الإيمان الذي يضيء القلب ، ويحرك الإرادة ، ويوجه العقول ، ويوظف الطاقات ليكون صورة عملية واقعية يتجلى فيها ليثبت وجوده ، ويترجم عن حقيقته . إنه الإيمان الذي يصلح القلوب ، ويهيئ النفوس ، ويصنع العجائب وينشئ الإنسان خلقاً آخر، ويصبه في قالب جديد يغير أهدافه ويهذب سلوكه وذوقه ونظرته للحياة " [2].

والمتدبر لكتاب الله يجد أن الله عز وجل يعد المؤمنين بالعلو والتمكين والنصر إذ يضع نصب أعينهم شرطاً أساسياً ألا وهو الإيمان ، قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [3]. وقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [4]. ويقول عز وجل : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [5].

إن الإيمان يمثل للأمة الإسلامية سلاحاً خطيراً في مواجهتها مع قوى الكفر ، بل هو السلاح الأول والأساسي والحاسم في هذه المواجهة . وهل جاهد المؤمنون من قبل ، وهل يجاهدون من بعد إلا بالإيمان ؟ فإذا وجد الإيمان وجد السبيل إلى النصر والتمكين ، وإذا فقد الإيمان فماذا تغني أسلحة الدنيا جميعاً ولو اجتمعت ؟

---

[1] راجع : الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية – محماس عبد الله الجعلود – دار اليقين – المنصورة- جـ ١ ص٢٤٦ .

[2] خصائص المجتمع الإسلامي – محمد عبد الله الخطيب – دار التوزيع والنشر ، القاهرة – ص١٨ .

[3] آل عمران : الآية (١٣٩) .

[4] النور : الآية (٥٥)

[5] الروم : الآية (٣٧) .

والاستعلاء صفة المؤمنين ، ولكن أداته محددة واضحة ﴿ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [1]. وقد سعت هذه القوة المستعلية بإيمانها – المؤمنين الأوائل – إلى تحقيق ذاتها في عالم الواقع بالعلم بكل أنواعه ، وتحقق لها في عالم الواقع أن كانت أكبر قوة على الأرض ، فاندفعت شرقاً وغرباً بسرعة مذهلة تنشر الهدى ، وتدك الباطل ، متغلبة على جميع العوائق المرصودة في الطرق ، يقول المولى عز وجل : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ [2].

قال صاحب المنار : " يقول تعالى : ولو أن أهل القرى آمنوا بما دعاهم إليه رسلهم عن عبادة الله وحده بما شرعه من الأعمال الصالحة ، واتقوا ما نهوهم عنه من الشرك والفساد في الأرض بالظلم والمعاصي ، لفتحنا عليهم أنواعاً من بركات السماء والأرض لم يعهدوها مجتمعة ولا متفرقة . وهذه الآية تؤكد القاعدة المقررة في القرآن الكريم ، أن الإيمان الصحيح يقتضي سعادة الدنيا قبل الآخرة ، كما يقتضي استحقاق نعمتها على أكمل وأتم صورة " [3].

إن الإيمان هو الطاقة الدافعة إلى العمل ، والقوة المحركة للبناء ، والحافز الطبيعي للتفوق . ويوم تصحح الأمة إيمانها ، وتفهمه فهماً صافياً ، وتحققه واقعاً حياً في سلوكها وقولها ، وتتحرك به في كل موقع ، وعلى كل جبهة من هذه المعمورة ، فتصير تطبيقاً عملياً أميناً لهذا الإيمان بالله الذي تدين به ، عندئذ تصير الأمة جديرة بأن يورثها الله الأرض ويستخلفها ويؤمنها ويمكن لها : ذلك وعد الله " إن الله لا يخلف الميعاد " .

وهكذا نلمس أهمية الإيمان في حياة الفرد ، وأهميته في بناء الأمة ، وضرورته لاستحقاق التمكين الذي وعد به رب العالمين .

ثانياً : العمل الصالح

الإيمان والعمل الصالح متلازمان ، فلا يكاد يذكر الإيمان إلا مرتبطاً بالعمل الصالح، وذلك للدلالة على العلاقة الوثيقة بينهما ؛ لأن العمل نتيجة له ، وثمرة من ثماره،وهو مظهره الذي يظهر به للناس .

والعمل الصالح المرتكز على الإيمان يؤهل للحياة الطيبة التي وعد الله تعالى بها حيث قال : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [4].

---

[1] آل عمران : الآية (١٣٩) .
[2] الأعراف : الآية (٩٦) .
[3] تفسير المنار – محمد رشيد رضا – دار المعرفة بيروت – جـ٩ ص٢٢ .
[4] النحل : الآية (٩٧) .

يقول ابن كثير : هذا وعد من الله لمن عمل صالحاً ، وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ﷺ من ذكر أو أنثى من بني آدم ، وقلبه مؤمن بالله ورسوله بأن يحييه الله تعالى حياة طيبة في الدنيا ، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة . والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت [1].

وقد استدل الفخر الرازي بهذه الآية الكريمة على أن العمل الصالح مغاير للإيمان، قال : لأنه تعالى جعل الإيمان شرطاً في كون العمل الصالح موجباً للثواب ، وشرط الشيء مغاير لذلك الشيء [2].

والعمل الصالح واسع الدائرة إلى حد يشمل أعمالاً كثيرة في الحياة ، عددها الرسول ﷺ في أحاديثه الشريفة منها :

قال رسول الله ﷺ : " ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة " [3].

وقال ﷺ : " بينما رجل يمشي بطريق ، وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له " [4].

وقال ﷺ : " بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج ، وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ مني ، فنزل البئر ، فملأ خفه ماءً ، ثم أمسكه بفيه حتى رقى ، فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى له ، فغفر له ، قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا في البهائم لأجراً ؟ قال : في كل كبد رطبة أجر " [5].

وهكذا يتضح أن أفق الخير والنفع الذي يعيش المسلم في دائرته ليس خاصاً بالإنسان وحده ، وإنما يتسع فيشمل كل كائن حي في الوجود .

كما يتضح أن العمل الصالح هو ممارسة منهاج الله تعالى في واقع الحياة ، وهو يمتد في كل ميادين الحياة ، والمؤمن مكلف أن يمارس إيمانه ، ويطبق منهج الله تعالى في كل أمور حياته .

---

[1] تفسير القرآن العظيم – لابن كثير – دار المعرفة – بيروت – جـ٢ ص٥٨٦ .
[2] مفاتيح الغيب – دار الغد العربي– جـ٩ ص٦٣١ .
[3] مسلم : كتاب المساقاة والزروع – باب فضل الغرس والزرع .
[4] البخاري: كتاب المظالم – باب من أخذ الغصن وما يؤذي الناس ، ومسلم : كتاب الإمارة – باب بيان الشهداء .
[5] مسلم : كتاب قتل الحيات – باب فضل سقي البهائم .

فلا ينحصر تطبيق منهج الله في العبادات فقط ، بل يجب أن يمتد ويتسع مع امتداد الميادين واتساعها ، وامتداد العصور وتطورها ، فإن أحداث الحياة وقضاياها متجددة ، ومنهاج الله يستوعبها كلها .

واقتصار التدين والعمل الصالح على بعض أنواع الطاعات مثل العبادات وبعض المعاملات فقط نقص لحقيقة الدين ، وحصر لاتساعه .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [1]. يقول سيد قطب : " وحيثما اجتمع إيمان القلب ، ونشاط العمل ، المتمثل في فعل الصالحات في أمة ، فهي الوارثة للأرض في أي فترة من فترات التاريخ . ولكن حينما يفترق هذان العنصران فالميزان يتأرجح ، وقد تقع الغلبة للآخذين بالوسائل المادية، حين يهمل الأخذ بها المتظاهرون بالإيمان ، وحين تفرغ قلوب المؤمنين من الإيمان الصحيح الدافع إلى العمل الصالح ، وإلى عمارة الأرض ، والقيام بتكاليف الخلافة التي وكلها الله إلى هذا الإنسان . وما على أصحاب الإيمان إلا أن يحققوا مدلول إيمانهم ، وهو العمل الصالح والنهوض بتبعات الخلافة ليتحقق وعد الله ، وتجري سنته " أن الأرض يرثها عبادي الصالحون " [2].

إن العمل الصالح يشمل كل عمل تكون النية فيه خالصة لوجه الله تعالى ، لا تختلط بأثر من الدنيا ، ولا هوى ، ولا شهوة ، فهو يشمل عمارة الكون ، وصلاح هذه الدنيا ، وامتلاك ناصيتها .

وعمل الصالحات بهذا المفهوم هو المدخل لعلاج الأزمات التي تجثم على صدور المجتمعات الإسلامية ، وهو طريق لكل تقدم ، والأساس لكل رقي ، والطريق الأوحد لبلوغ النهضة ، وجني ثمارها .

وبدون فهم العمل الصالح بهذا المعنى ، وبدون القيام به انطلاقا من هذا المفهوم ، ستظل الأمة تعاني من أزماتها المتعددة .

ويوم تفهم الأمة الإسلامية العمل الصالح بمعناه الصحيح الشامل ، وتمارسه بهذه الصورة تطبيقا وعملا ، يملأ آفاق الحياة ، ويستوعب طاقات الأمة ، فهي يومئذ جديرة بوراثة الأرض ، وتمكين الله لها كما وعد ﴿ وكان وعد ربي حقا ﴾ [3].

---

[1] الأنبياء : الآية (١٠٥) . [2] في ظلال القرآن - جـ٤ ص٢٤٠٠ .

[3] الكهف : الآية (٩٨) .

ثالثاً : العبادة

العبادة هي المقوم الثالث من مقومات التمكين ، وذلك حسب ترتيبها في الآية الكريمة [1]. والعبادة – كما عرفها ابن تيمية – " اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة " [2].

وهي مهمة الإنسان الأولى والأساسية في هذه الأرض ، قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون ﴾ [3]، وهي الغاية التي من أجلها أرسل الله الرسل ، وأنزل الكتب ، قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ [4].

إن العبادة لله هي الوظيفة التي تربط الجن والإنس بناموس الوجود ، أن يكون هناك رب وعبد ، رب يعبد ، وعبد يعبد ، وأن تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار [5].

والعبادة حق الله على عباده ، وذلك في حديث النبي ﷺ الذي رواه معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال ﷺ : هل تدري ما حق الله على العباد ؟ قلت : الله ورسوله أعلم، قال : " حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً " قال : ثم سار ساعة ثم قال : يا معاذ بن جبل ، فقلت : لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال : فهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قال : قلت الله ورسوله أعلم . قال : " فإن حق العباد على الله ألا يعذبهم " [6].

ولكن ما مفهوم العبادة في الإسلام ؟ يقول ابن تيمية " العبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة . فالصلاة والزكاة والصيام والحج ، وصدق الحديث وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وجهاد الكفار والمنافقين ، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل ، والمملوك من الآدميين ، والبهائم ، والدعاء ، وحب الله تعالى ورسوله ﷺ وخشيته تعالى ، والإنابة إليه ، وإخلاص الدين

---

[1] الآية (٥٥) من سورة النور .
[2] العبودية – دار المعارف ، الرياض – ص٤ .[3] الذاريات : الآية (٥٦) .
[4] النحل : الآية (٣٦) . [5] في ظلال القرآن – جـ٤ ص١٩٣٥ .
[6] مسلم : كتاب الإيمان – باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة .

له ، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه ... وأمثال ذلك من العبادة " [1].

فمفهوم العبادة لله تعالى ليس محصوراً على مناسك التعبد المعروفة من صلاة وصيام .. كما يتبادر إلى فهم كثير من المسلمين ، وإنما هي أعمق من ذلك بكثير . والشعائر التعبدية من صلاة وصيام ... – على منزلتها ، وأهميتها – إنما هي جزء من العبادة ، وليست كل العبادة التي يريدها الله من عباده [2].

وإنما أطلقت لفظة " العبادة على التعبدية ، باعتبارها صورة من صور الدينونة لله– تعالى – في شأن من الشئون – صورة لا تستغرق مدلول العبادة بل إنها تجيء بالتبعية لا بالأصالة ، ولكن لما بهت مدلول الدين ، ومدلول العبادة في نفوس الناس ، صاروا يفهمون أن عبادة غير الله التي يخرج بها الناس من الإسلام إلى الجاهلية هي فقط تقديم الشعائر التعبدية لغير الله ، وأنه متى تجنب الإنسان هذه الصورة فقد بعد عن الشرك والجاهلية وأصبح مسلماً [3].

وهذا تبديل في مدلول لفظ " العبادة " الذي يعنى الدينونة الكاملة لله رب العالمين في كل شيء ، ورفض الدينونة لغير الله – تعالى – في كل شأن والذي نص عليه رسول الله ﷺ وهو يفسر قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [4]. فقد كان عليه السلام يقرأ هذه الآية عندما دخل عدي بن حاتم ، فقال : إنهم لم يعبدوهم . فقال ﷺ : " بلى إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم " [5].

والمنهج الإسلامي كله غايته تحقيق معنى العبادة أولا وأخيرا ، والنشاط الإنساني لا يكون متصفا بوصف العبادة ، محققا لهذه الغاية ، إلا حين يتم النشاط وفق المنهج الرباني ، فيتم بذلك إقرار الله – سبحانه – بالألوهية ، والاعتراف له وحده بالعبودية ، وإلا فهو خروج عن العبادة ، لأنه خروج عن العبودية ، أي خروج عن غاية الوجود الإنساني كما أرادها الله . أي خروج عن دين الله [6].

---

[1] العبودية – ص٣٨ .

[2] راجع : هل نحن مسلمون – محمد قطب – دار الشروق ، القاهرة – ص٤٥ .

[3] في ظلال القرآن – جـ٤ ص١٩٠٢ .

[4] التوبة : الآية (٣١) .

[5] سنن الترمذي : كتاب التفسير – باب تفسير سورة التوبة ، وقال الترمذي : حديث غريب .

[6] في ظلال القرآن – جـ٤ ص١٩٣٦ .

والإنسان بإمكانه أن يحول كل حياته إلى عبادة إذا توفر له شرط القصد والنية في التحرك والعمل والسلوك والاعتقاد .. فطلب العلم عبادة ، وتدريسه عبادة ، والشغل من أجل الكسب المالي عبادة ، والنفقة على الأهل عبادة ، وعمارة الأرض ماديا ومعنوياً عبادة ، والحكم بين الناس بالحق عبادة ، وهكذا تتحول سائر تحركات الإنسان إلى عبادة بشرط توافر النية [1].

هذا عن جانب النية والاعتقاد ، وهي أمر داخلي تصوري ، أما كيف يحقق الإنسان غاية وجوده هذه عملياً وهي محصورة ؟ فيكون ذلك أولاً بتوحيد الله سبحانه في الألوهية والربوبية ، قال تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [2]، ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [3].

وبعد الإقرار بهذا تأتي الشعائر التعبدية التي لها أهميتها ودورها في بناء الأمة في كل النواحي الاجتماعية والاقتصادية والتربوية والسياسية ... إلخ . فهي التي تربط الإنسان بالله ربطاً دائماً متجدداً .

إن العبادة كما بينها الله تعالى في كتابه المنزل تشمل أموراً ثلاثة :

أولاً: الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى واحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله .

ثانياً : التوجه إلى الله تعالى وحده بالشعائر التعبدية التي افترضها على عباده ، والتوجه إليه تعالى كذلك بكل حركة في الضمير ، وكل حركة في الجوارح ، وكل حركة في الحياة ، والتجرد من كل شعور آخر ، ومن كل معنى غير معنى التعبد لله .

ثالثاً : الالتزام بما أنزل الله تعالى من التحليل والتحريم والتحسين والتقبيح والإباحة والمنع .

وأيما أمر من هذه الأمور اختل فهو ناقض لحقيقة التوحيد ، ومدخل في الشرك الذي يخرج الناس من الإسلام [4].

ومن أخطر الانحرافات التي وقعت فيها الأجيال المتأخرة من المسلمين ، انحرافهم في تصور مفهوم معنى العبادة ، حيث ضاق وانحصر في الشعائر التعبدية ، وغدت حتى الشعائر غايات مقصودة لذاتها لا أثر لها في الحياة ولا توابع لها ومستلزمات ، بينما لكل شعيرة بُعد نفسي ذاتي

---

[1] انظر : مفاهيم ينبغي أن تصحح – محمد قطب – دار الشروق – ص١٩١ .

[2] محمد : الآية (١٩) . [3] النساء : الآية (٣٦) .

[4] راجع : واقعنا المعاصر – محمد قطب – مؤسسة المدينة ، السعودية – ص٣٤ . وفي ظلال القرآن – جـ٦ ص٣٣٨٧ بإيجاز عند تفسير قوله تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) الذاريات ٥٦ .

وعملي اجتماعي يشملان ساحة الحياة بكافة مستوياتها ، لأن الله سبحانه وتعالى لم يخلق شيئاً عبثاً باطلاً ، وهذا ما يتنافى مع غاية خلق الكائنات وسننه في المخلوقات . وحين يعقد الإنسان مقارنة بين المفهوم الشامل الواسع العميق الذي كانت عليه الأجيال الأولى من المسلمين في فهمها لأمر العبادة ، والمفهوم الهزيل الضئيل الذي تفهمه الأجيال المعاصرة ، لا يستغرب كيف هوت هذه الأمة من عليائها لتصبح في هذا الحضيض الذي نعيشه اليوم ، وكيف هبطت من مقام الريادة والقيادة للبشرية كلها لتصبح ذلك الغثاء الذي تتداعى عليه الأمم من كل جانب كما تنهش الفريسة الذئاب [1].

لقد كان الجيل الأول يفهم الحياة كلها على أنها عبادة ، تشمل الصلاة والنسك وتشمل العمل كله ، وتشمل لحظة الترويح كذلك ، فلا شيء في حياة الإنسان كلها خارج من دائرة العبادة ، وإنما هي ساعة بعد ساعة في أنواع مختلفة من العبادة ، كلها عبادة وإن اختلفت أنواعها ومجالاتها .

وأما الاستدلال على عموم العبادة وشمولها لحياة الإنسان بفعل السلف وفهمهم ، ففيما روى البخاري في صحيحه عن أبي بردة في قصة بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، وفي آخره قال أبو موسى لمعاذ : فكيف تقرأ أنت يا معاذ ؟ قال : أنام أول الليل ، فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم ، فأقرأ ما كتب الله لي ، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي [3].

وفي كلام معاذ رضي الله عنه دليل على أن المباحات يؤجر عليها بالقصد والنية وهذا الفهم يجعل المسلم يقبل على شئون الحياة كلها وكله حرص على إتقانها لكونها عبادة لله تعالى ، ملتزماً بأن يكون العمل مشروعاً في نظر الإسلام لقوله ﷺ " إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً ... " [4]، وأن تصحبه النية الصالحة ، وأن يؤدي العمل بإتقان وإحسان لقوله ﷺ : " إن الله كتب الإحسان على كل شيء ... " [5]، وأن يلتزم في عمله حدود الله تعالى ، وألا يشغله عمله لمعاشه عن واجباته الدينية ، لقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [6].

وتبقى العبادة هي الوحدة المركزية في كل تحركات البشر ، وهي الغاية الكبرى من وجود الإنسان والجن ، وسائر وحدات الحياة الأخرى

---

[1] مفاهيم ينبغي أن تصحح – ص١٧٣ .

[2] المصدر السابق – ص٢٠٣ .

[3] صحيح البخاري : كتاب المغازي – باب بعثة أبي موسى ومعاذ إلى اليمن .

[4] صحيح مسلم : كتاب الزكاة – باب قبول الصدقة من الكسب الطيب .

[5] مسلم : كتاب الصيد – باب الأمر بإحسان الذبح .

[6] المنافقون : الآية (٩) .

تدور في فلكها ومحيطها في نظام وتوافق وانسجام ، والخروج عن هذه الغاية – العبادة لله – يوقع الإنسان في عبادة غير الله ، وذلك هو الفسوق والانحراف والفساد والسقوط .

وأداء الشعائر على وجهها الصحيح المطلوب هو الذي ينشئ التوافق التام ، والانسجام الكامل في أفكار الإنسان وتصوراته وإرادته وعقيدته وأعماله وسلوكه . والانسجام والتناسق ينفي الاضطرابات الداخلية والقلاقل النفسية ، ويجعل كل حواس الإنسان في اتجاه واحد ، وفي عمل واحد متوافق متوازن ، فلا تضارب بين المطالب المادية والمطالب المعنوية الروحية حتى يصير الإنسان كياناً واحداً ، فلا تضارب بين ما يسمع وما يقول ، ولا بين ما يعتقد ويعمل [1].

ودعا الله الناس إلى توحيده بالعبادة ، وبيَّن سبحانه موجبات وأسباب ذلك له وحده، فقال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [2].

هكذا كانت العبادة تصوراً وفهماً وعملاً عند الأجيال المسلمة الأولى ، فماذا عن العبادة في تصور المسلمين اليوم ، وواقعهم ؟

إنها عند كثير من المسلمين اليوم لا تتعدى مجرد الصلوات اليومية والأذكار ، وغيرها من صور العبادة المعروفة في مواسمها المعينة ، ولا علاقة لها بعد ذلك بأي نشاط من أنشطة الحياة ، أو أي ميدان من ميادين العمل .

وهذه العبادة التي يفهمها المسلمون اليوم ويمارسونها لن تنقذهم مما هم فيه ، ولن ترفعهم من وهدة الذل والهوان التي صاروا إليها ، لأن هذه العبادة التي يمارسونها ليست هي التي كتبها الله عليهم .

إن سبب تأخر المسلمين وتخلفهم إنما هو نتيجة لفساد تصورهم وسلوكهم وإفراغ الإسلام من محتواه . فيوم أن كانت ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ [3]. عبادة لم يجرؤ أحد على احتلال أرض المسلمين ،

---

[1] راجع : الحضارة الإسلامية : أسسها ومبادئها – أبو الأعلى المودودي – دار الفكر الحديث ، بيروت – ص ٧٠-٧١

[2] البقرة : الآيتان (٢١-٢٢) .

[3] الأنفال : الآية (٦٠) .

واستلاب خيراتهم ، ويوم كان " طلب العلم فريضة " [1]، لم يكن هناك تخلف علمي ، بل كانت الأمة الإسلامية هي أمة العلم التي تعلمت أوروبا في مدارسها ، ويوم كانت ﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ [2] عبادة ، كانت المجتمعات الإسلامية أغنى مجتمعات الأرض ، ويوم كانت " كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ..." [3] عبادة ، وكان ولي الأمر يستشعر أنه راع ، وأن الله سائله عن رعيته ، لم يكن للفقراء في المجتمع المسلم مشكلة .

وهكذا يجب علينا أن نصحح المفاهيم أولا ، ثم نقيم بناء جديدا على المفاهيم الصحيحة للإسلام .

وهكذا يتجلى بوضوح أن قضية العبادة قضية عقيدة ، وإيمان ، وإسلام ، ثم هي بعد قضية منهج للحياة الواقعية يتمثل في شريعة ونظام وأحكام ، وفي أوضاع ، وتجمعات تتحقق فيها الشريعة والنظام ، وتنفذ فيها الأحكام .

وحتى تستحق الأمة الإسلامية اليوم وعد الله تعالى بالتمكين ، فإن عليها أن تصيغ حياتها كلها صياغة جديدة على منهج الله رب العالمين ، لتصبح كلها عبادة من لحظة التكليف إلى لحظة الموت ، لا تند عنها لحظة واحدة من لحظات الوعي ، ولا لمحة ، ولا خاطر ، ولا لون من ألوان النشاط ، امتثالاً وتحقيقاً لقول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [4].

عوائق التمكين

العوائق جمع عائقه ، والتعويق : التثبيط ، قال تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ ﴾ [5].

وعاقه عن الشيء يعوقه عوقاً : صرفه وحبسه ، ومنعه منه ، وشغله عنه ، وجمعها : عوق للعاقل ، وعوائق لغير العاقل [6].

---

[1] ابن ماجة : كتاب فضل العلم – باب الحث على طلب العلم – وهو حديث صحيح – انظر : صحيح الجامع الصغير وزيادته – محمد ناصر الدين الألباني ٣٨٠٨/٣ .

[2] الملك : الآية (١٥) .

[3] البخاري :كتاب النكاح-باب المرأة راعية في بيت زوجها، مسلم: كتاب الإمارة-باب: فضيلة الإمام العادل .

[4] الأنعام : الآية (١٦٢) .

[5] الأحزاب : الآية (١٨)

[6] المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية ، القاهرة – مادة (عوق) ، ٦٦٠/٢ .

وعوائق التمكين : أي ما يعوق مسيرة التمكين للأمة الإسلامية ، سواء ما يدبر لها من الخارج أو ما يعوقها من الداخل .

ولابد للأمة الإسلامية أن تقف على ذلك ، حتى تستطيع أن تواجه الكيد ، وأن تتجاوز التعويق .

وبذلك تنقسم هذه العوائق إلى قسمين : خارجية وداخلية . *أما العوائق الخارجية* : فتتمثل في : مكايد اليهود ، والصليبية الحاقدة ، والغزو الفكري .

أما مكايد اليهود العالمية ، فذلك لأنهم من أشد الناس عداوة وبغضاً للإسلام والمسلمين ، وذلك بشهادة الله سبحانه وتعالى حيث قال: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ [1].

ولقد تحدث القرآن كثيراً عنهم ، وشرح نفسياتهم الشريرة ، " وما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود ، ومباهتة للحق ، وغمط للناس ، وتنقص لحملة العلم ، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هموا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة ، وسموه ، وسحروه، وألبوا عليه أشباههم من المشركين – عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة"[2].

ومن أساليب اليهود في الوصول إلى أهدافهم : السيطرة على الاقتصاد العالمي ، والتدخل في نظام الحكم في العالم ، وهدم الأديان ، وإشاعة النظريات الإلحادية والمبادئ الهدامة للأخلاق والقيم ، والسيطرة على الصحافة العالمية ،ودور النشر والتوزيع ، وإشاعة الفرقة وإشعال نار الحرب بين سائر الأمم ،وغير ذلك من أساليب تتطور وتتغير بتغير الزمان والمكان [3].

كذلك تلعب الصليبية الحاقدة دورها الخطير على الإسلام والمسلمين منذ العصور الوسطى ، متمثلة في حروبها الصليبية ، مستخدمة الشعور الديني شعاراً ، والقوة العسكرية وسيلة في الوصول إلى أغراضها .

كما تجلت في حروب الإبادة التي شنتها على الإسلام والمسلمين في الأندلس ، ثم في حملات الاستعمار والتبشير على العالم الإسلامي أينما كان .

وقد استباحت الحملات الصليبية كل شيء في طريقها ، فهدمت المساجد أو حولتها إلى كنائس ، وأحرقت مكتبات المسلمين ، ثم أحرقت الشعوب الإسلامية نفسها [4].

---

[1] المائدة : الآية (٨٢) .

[2] تفسير القرآن العظيم – لابن كثير – دار المعرفة ، بيروت ، جـ٢ ، ص ٨٦ .

[3] العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية – سعد الدين السيد صالح – ص٥٢ .

[4] قادة الغرب يقولون : دمروا الإسلام .. أبيدوا أهله ، ص ٢١ .

والمعوق الثالث الخارجي من معوقات التمكين هو الغزو الفكـــري : وهو الوسائل غير العسكرية التي يتخذها أعداء الإسلام لإزالة مظاهر الحياة الإسلامية ، وصرف المسلمين عن التمسك بإسلامهم [1].

وهو سلاح من أخطر الأسلحة التي يواجه بها أعداء الإسلام الأمـــة الإسلامية لطمس هويتها وخلعها من جذورهـــا ، وإبعادهـــا عـــن دينـــها . وأسلوب الغزو الفكري يتميز بالخداع حيث يأتي في صورة كتاب جميل ، أو فيلم مثير ، وبلسان أحد أبناء وطننا ، كما يتميز بالخطورة فهو محبب إلـــى النفوس ، لاصق بالقلوب عميق التأثير ، والبساطة فهو سهل بسيط ، وأقـــل تكلفة من الغزو العسكري الذي يكلف الكثير من الطاقات والدماء [2].

ومظاهر الغزو الفكري كثيرة مجملها في حملات التشويه الموجهـــة ضد الإسلام وتشمل محاولة تشويه القـــرآن الكريـــم ، والســـنة النبويـــة ، وشخص الرسول ﷺ،ومحاولة تشويه التاريخ الإسلامي والتراث الإسلامي .

كما تشمل حملات التغريب الموجهة ضد الإســـلام متمثلـــة فـــي : تغريب التعليم والثقافة ، وتغريب الحياة الاجتماعية [3].

وللغزو الفكري صور كثيرة ، ومن أقواها وأشـــدها فـــي العصـــر الحديث التبشير والاستشراق .

وعوائق التمكين الداخلية : ما كان نابعاً من قلب ديار المســـلمين ، ومن داخل نفوسهم ، ويتمثل ذلك في الفرقة في صفوف الأمـــة الإســـلامية [4]، وتخلفها في مجالات الحياة المختلفة العلمية والاقتصاديـــة والصناعيـــة والحربية والتجارية. " إن المسلمين عجزوا في شئون الحياة عجزاً شـــائناً ، وظهر هذا العجز شللاً في رسالتهم ، وركوداً في دعوتهم. ولا غـــرو فإنـــه يستحيل أن تنجح رسالة ليس لأهلها تمكين في الأرض " [5].

إن الأمة لا تنجح في أداء رسالتها إلا إذا كانت لها قـــدرات ماديـــة مساندة .. وحكم الوسائل هنا حكم الغايات نفسها ، فما لا يتم الواجب إلا بـــه

---

(1) واقعنا المعاصر : ص ١٦٥ .

(2) التحديات التي تواجه العالم الإسلامي – عبد الوهاب عبد الواسع – دار الشعب ، القاهرة – ص٣٢ .

(3) المعاصرة في إطار الأصالة – أنور الجندي – ص ٢٨ ، والغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي – علي عبد الحليم محمود – ص٥٩ .

(4) مع أن مقومات الوحدة بين الشعوب الإسلامية موجودة ومتحققة وهي تتلخـــص في : الدين ، اللغة ، التاريخ ، المصلحة المشتركة ، الخطر المشترك . وبالتالي تصبح الوحدة الإسلامية ضرورة ينبغي أن يتلاقى عندهـــا العـــالم الإســـلامي لينصهر في بوتقـــة الوحدة الإسلامية لتصبح الأمة بحق خـــير أمـــة أخرجـــت للناس .

(5) ركائز الإيمان بين العقل والقلب – محمد الغزالي – ص ١٥٥ .

فهو واجب . وكيف يتمكن المسلمون من تبليغ رسالتهم وهم يعتمدون في تحصيل رغيفهم على عون الملاحدة ؟ وكيف يمكنهم الجهاد في سبيل الله تعالى وهم ينتظرون إمداد السلاح من غيرهم [1]؟

وسائل التمكين

إن شروط التمكين التي ذكرتها الآية الكريمة من إيمان ، وعمل صالح ، وعبادة ، لابد لها من وسائل لمعرفتها وإعادة صياغتها على الفهم الصحيح ، ثم تبليغها ، والجهاد في سبيلها ، والصبر على ذلك ,

وتنحصر وسائل التمكين في خمسة عناصر هي :

العلم – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – الجهاد – الإعداد – الصبر

أولا : العلم

العلم وسيلة من وسائل التمكين للأمة الإسلامية ، لأنه من المستحيل أن يمكن الله تعالى لأمة جاهلة ، متخلفة عن ركاب العلم .

والناظر في القرآن الكريم يترائى له في وضوح أنه زاخر بالآيات التي ترفع من شأن العلم ، وتحث على طلبه وتحصيله ، قال تعالى : ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ [2]، بل جعله الله دليل إلى كل خير ، ففي قوله تعالى : ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا ءاتيك به ﴾ [3]. تنبيه على أنه اقتدر بقوة العلم ، وقد جعل الله العلماء في المرتبة الأولى بعد الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم﴾ [4].

قال ابن القيم : " أفضل ما اكتسبته النفوس ، وحصلته القلوب ، ونال به العبد الرفعة في الدنيا والآخرة ، هو العلم والإيمان ، ولهذا قرن بينهما سبحانه في قوله : ﴿وقال الذين أوتوا العلم والأيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ﴾[5]، وقوله: ﴿ يرفع الله الذين ءامنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ [6].

وهذا العلم الذي يحض الإسلام أبناءه عليه هو علم الدنيا والآخرة ، العلم الذي يزكي النفس ، ويسمو بالروح ، ويعرف المسلم حق الله عليه ، ثم العلم الذي يجعل من الدنيا مكانا طيبا للحياة عن طريق المعرفة والحضارة .

---

[1] الغزو الثقافي يمتد في فراغنا – محمد الغزالي – ص ٥٩ .

[2] الزمر : الآية (٩) .

[3] النمل : الآية (٤٠) .

[4] آل عمران : الآية (٧) .

[5] الروم : الآية (٥٦) .

[6] المجادلة : الآية (١١) .

" لقد قرر فقهاء الأمة : أن كل علم يحتاج إليه المسلمون في دينهم أو دنياهم فإن تعلمه وإتقانه فرض كفاية تأثم الأمة كلها إذا فرطت فيه ، ويأثم بالأخص أولو الأمر " [1].

إن التشجيع الذي لقيه العلم ، والبحث العلمي من الدين الإسلامي في الصدر الأول، انتهى إلى ذلك الإنتاج الثقافي العلمي الباهر في أيام الأمويين والعباسيين ، وأيام الدولة الإسلامية في الأندلس . لقد أخذت الحضارة بيد البشرية إلى الأفضل ، وقدمت إليها أعلاما وأساتذة في العلوم كافة أمثال : ابن خلدون في علم الاجتماع والتاريخ والعمران ، وأبو زكريا الرازي في الطب ، وأبو بكر الخوارزمي في الرياضيات والفلك، وابن الهيثم في علم الطبيعة والبصريات ، وأبو زكريا العوام في علم النبات ، وأبو القاسم الزهراوي في علم الجراحة ، وآلاف غيرهم ، يحفظ التاريخ أسماءهم ، ويتكلم المنصفون عن آثارهم العلمية التي خلفوها ، وعن تآليفهم في شتى ميادين العلوم ، وعن كتبهم التي علمت العالم[2].

وإن المسلمين الآن في ذيل القافلة ، وتفيد آخر الإحصائيات أن الأمة العربية بها اثنان وأربعون مليون أمي،لا يعرفون القراءة ولا الكتابة .

"إن لغتنا العربية الآن تكاد تكون خالية من علوم الطب والصيدلة والأحياء وأغلب فروع الهندسة والكيمياء وعلوم الفضاء ... أفبهذا الفراغ نحمى ديننا ونحرص إيماننا ، ونرد أعداءنا ، ونصون حمانا [3] ؟

إن العزلة عن الكون وعلومه جريمة في حق الإسلام وأهله ، وتأييد الحق الذي شرفنا الله به لا يتم بالقصور العلمي وحسبان الدين مراسم جوفاء .

والعبادة كما تكون مناجاة لله في صلاة خاشعة ، تكون كذلك مدارسه لعلمه الجليل في كونه الكبير [4].

إن العالم الإسلامي إذا أراد أن يرجع إلى ماضيه العريق ، ومجده التليد ، وإذا أراد أن يستأنف الحياة ، وإذا كان يطمح إلى القيادة والريادة ،

---

[1] لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام والعصر – يوسف القرضاوي – مكتبة وهبة – ص٥٠ .

[2] راجع : لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم – شكيب أرسلان – دار النشر – ص ٦٠٥ .

[3] الطريق من هنا – محمد الغزالي – دار التوزيع والنشر – ص ٣٥ .

[4] مشكلات في طريق الحياة الإسلامية – دار البشير – ص ٢٩ .

وإذا كان يريد أن يتحقق وعد الله تعالى له بالتمكين ، فلابد إذاً من الزعامة العلمية ، وما هي بالأمر الهين [1].

ثانياً : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إن الدعوة إلى الله تعالى هي الركن الركين في بناء صرح الإسلام . وهي الأمل الكبير في عودة روح الإسلام إلى الحياة من جديد ، كما أنها من أهم وسائل التمكين للأمة الإسلامية ، حيث لا سبيل إلى تطبيق شروط التمكين إلا عن طريق الدعوة .

وارتباط الدعوة إلى الله بالتمكين واضح ووثيق ، فالتمكين المنشور الذي يتمثل في بناء مجتمع إسلامي لابد أن تسبقه دعوة شاملة ، تمهد له وتدعو إليه ، وتعد له رجاله وأنصاره .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو خلاصة الدعوة إلى الله ، وهو ضرورة بشرية ، وفريضة شرعية ، قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [2] ، وقال ﷺ "بلغوا عني ولو آية ..." [3].

والحديث هنا بصيغة الأمر ، فالدعوة إلى الله تعالى أحد الفروض الإسلامية ، وهي فرض كفاية ، إذا قامت به فئة من المسلمين ، سقط الحرج والإثم عن المجموعة "إن العمل للإسلام لإيجاد الشخصية الإسلامية التي تتمثله عقيدة وأخلاقاً ، ولإيجاد المجتمع الذي يلتزمه فكراً وسلوكاً ، ولإيجاد الدولة التي تطبقه شريعة ومنهاجاً ودستوراً ، وتحمل دعوته للناس لإقامة الحق والعدل في العالمين ، إن هذا العمل وما يحتاجه وما يتصل به ويتطلبه واجب إسلامي لا يسقط حتى تقوم السلطة التي تتولى القيام بهذه المسئولية وترعى شئون المسلمين .. " [4].

فالإسلام لا يكتفي من المسلم أن يكون في نفسه صالحاً مهتدياً ، وإنما يريد منه أن يكون مصلحاً هادياً ، وهو بذلك يوجب الدعوة إلى الله على كل مسلم قادر عليها [5].

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رسالة الأمة الإسلامية ، فإن هذه الأمة لا تنهض إلا برسالاتها التي كلفها الله بها ، وشرط بها

---

[1] ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين – أبو الحسن الندوي – مكتبة الدعوة – ص ٢٤٠ .

[2] آل عمران : الآية (١٠٤) .

[3] البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء – باب ما ذكر عن بني إسرائيل .

[4] ركائز الإيمان بين العقل والقلب – محمد الغزالي – دار الاعتصام – ص ٥٧ .

[5] التمكين للأمة الإسلامية – محمد السيد محمد – دار السلام – ص ٩٧ .

خيرية الأمة ، وهي رسالة واضحة مشرقة ، لم يعرف العالم رسالة أعدل ولا أفضل منها ، وهي نفس الرسالة التي حملها المسلمون في فتوحهم الأولى ، والتي لخصها أحد رسلهم وهو "ربعي بن عامر" في مجلس رستم حيث قال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام [1].

قال تعالى ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [2] ، وصفة هذه الأمة التي لا ينقطع وجودها من الأرض – أيا كان عددها أنهم (يهدون بالحق) فهم دعاة إلى الحق لا يسكتون عن الدعوة به وإليه ، ولا يتقوقعون على أنفسهم ، ولا ينزوون بالحق الذي يعرفونه ، ولكنهم يهدون به غيرهم .. [3].

ولقد جعل الله تعالى شرط التمكين في الأرض ، وحق السيادة عليها وعمارتها ليس محض التقوقع في المساجد للصلاة ، ولا حتى محض إيتاء الزكاة ، ولكنه حتم ضرورة اقتران هذه الأمور التعبدية بضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقال سبحانه : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [4].

ولقد ذكر القرآن الكريم أن بقاء الأمم وهلاكها منوط بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجودًا وعدمًا ، وأن التخلي عن هذه الروح الإيجابية ينزل لعنة الله على المتقاعسين ، ويؤدي إلى فناء هذه الأمم وزوالها ، قال تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [5].

وقد تلا النبي ﷺ هذه الآية الكريمة ثم قال : " والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على أيدي المسيء ،

---

[1] راجع : البداية والنهاية – لابن كثير – دار الكتب العلمية – بيروت – جـ٤ – ص٥٤ .

[2] الأعراف : الآية (١٨١) .

[3] في ظلال القرآن – جـ٣ ، ص ١٤٠٢ .

[4] الحج : الآيتان (٤٠،٤١) .

[5] المائدة : الآيتان (٧٨،٧٩) .

ولتأطرنه على الحق أطراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ويلعنكم كما لعنهم " [1].

كما روى حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : " والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم " [2].

ولقد جاء إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بصورة قوية في الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " من رأي منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان " [3].

ولقد بسط الإمام النووي الحديث ، وبوب كلامه بقوله : باب كون النهي عن المنكر من الإيمان ، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان .

وقال : قوله ﷺ (فليغيره) أمر إيجابي ، وذلك بإجماع الأمة ، وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، الكتاب والسنة وإجماع الأمة .

والدعوة إلى الله المتمثلة في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر لا تقتصر على مجرد الوعظ والخطابة ، بل لابد من الأخذ بكل الوسائل الممكنة والفعالة لتبليغ دعوة الله والنهوض بها من أجل التمكين لدين الله في الأرض .

ثالثاً : الجهاد

الجهاد وسيلة من وسائل التمكين للأمة الإسلامية ، وهو بذل المسلم طاقته في نصرة الإسلام ابتغاء مرضاة الله ، وهو من أعظم وأخطر أركان الإسلام ، وهو في أعلى المنازل وأسماها بعد الإيمان بالله .

عن أبي سعيد الخدري – رضي – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً ، وجبت له الجنة " فعجب لها أبو سعيد فقال : أعدها علي يا رسول الله ، فأعادها عليه ثم قال : " وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ، ما بين كل درجتين

---

[1] قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٦٩/٧ : رواه الطبراني عن أبي موسى الأشعري ورجاله رجال الصحيح – لتأطرنه : لتعطفنه – وتحنونه إلى الحق .

[2] رواه الترمذي : كتاب الفتن – باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقال : حسن . وانظر صحيح الجامع الصغير ٦٩٤٧/٦ .

[3] مسلم : كتاب الإيمان – باب كون النهي عن المنكر من الإيمان ، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان .

كما بين السماء والأرض " ، قال : وما هي يا رسول الله ؟ قال : الجهاد في سبيل الله ، الجهاد في سبيل الله ، الجهاد في سبيل الله " . [1]

وقد كانت حياة النبي ﷺ من مبدئها إلى منتهاها سلسلة متصلة من الجهاد في سبيل الله تعالى . والمطالع لكتب السيرة يجد أن النبي ﷺ قد غزا في سبيل الله تعالى سبعًا وعشرين غزوة ، وبعث من السرايا قريباً من سبع وأربعين سرية [2].

والجهاد الإسلامي لا عدوان فيه ، قال تعالى ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [3].

وأمر سبحانه بالعدل حتى مع الأعداء والخصوم ، فقال ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [4].

فالمسلمون حين يقاتلون في سبيل الله تعالى لا يعتدون ، ولا يسرقون ، ولا ينهبون الأموال ، ولا ينتهكون الحرمات ، فهم في حربهم خير محاربين ، كما أنهم في سلمهم أفضل مسالمين .

عن بريدة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمّر الأمير علي جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى ، ومن معه من المسلمين خيرًا . ثم قال : " اغزوا باسم الله في سبيل الله . قاتلوا في سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليدًا " [5].

---

[1] صحيح مسلم : كتاب الجهاد – باب بيان ما أعده الله للمجاهدين .

[2] تطلق الغزوة في اصطلاح المؤرخين وكتاب السيرة على جيش قاده الرسول ﷺ بنفسه ، سواء حصل فيه قتال أو لم يحصل. أما السرية فتطلق على طائفة مختارة من الجيش يرسلها النبي ﷺ لإرهاب أعدائه ، أو لاستكشاف أحوالهم ، أو لغير ذلك ، وهذا باعتبار الغالب – وإلا فقد تطلق الغزوة على ما هو في الحقيقة سرية ، كغزوة مؤته مثلاً :

عدد الغزوات : عدها ابن سعد ، وابن اسحق ، وابن هشام سبعًا وعشرين ، وعدها غيرهم أقل من ذلك .

عدد السرايا : عدها ابن سعد سبعاً وأربعين ، وعدها ابن اسحق ثماني وثلاثين ، وعدها ابن عبد البر خمساً وثلاثين .

راجع : سيرة ابن هشام – تحقيق مصطفي السقا وشركاه – دار الكتب العلمية بيروت – ج٤ –ص١٠٢٧.

[3] البقرة : الآية (١٩٠) .

[4] المائدة : الآية (٨) .

[5] صحيح مسلم : كتاب الجهاد – باب تأمير الأمر على البعوث .

الغل : احتباس شيء من الغنيمة قبل تقسيمها .

فأين هذه الرحمة من غارات المتمدينين الخائنة ، وفظائعهم الشنيعة ؟ وأين قانونهم الدولي من هذا العدل الرباني الشامل [1]؟

والجهاد في سبيل الله لإقرار منهج الله في الأرض ، وإعلان سلطانه على البشر ، وتحكيم شريعته في الحياة ، لتحقيق الخير والصلاح والنماء للناس ؟ إنه قتال في سبيل الله لتحقيق منهاج الله ، وتقرير سلطانه ، وتنفيذ شريعته ، وتحقيق الخير للبشرية عامة ، وأهمية القوة والجهاد في تمكين الدعوة ، وتحقق شروط التمكين ، أنها تؤمّن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها ، فلا يصدون عنها ، ولا يفتنون كذلك بعد اعتناقها ، كما فيها إرهاب لأعداء الإسلام ، فلا يفكرون في الاعتداء على حرمات الإسلام، وأن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء ألا يفكروا في الوقوف في وجه الدين الإسلامي، وهو ينطلق لتبليغ كلمة الله إلى الإنسان في كل الأرض ، وأخيرًا أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية من دون الله رب العالمين .

وبما أن الأمة الإسلامية أمة مجاهدة ، فلابد أن تكون قوية ، حتى تستطيع أن تنهض بهذه الرسالة التي أنيطت بها ، وأن يتم التمكين لها ، ولذلك حث النبي ﷺ المؤمنين على أن يكونوا أقوياء ، فقال ﷺ : " المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف" [2].

وما أحوج المسلمين اليوم إلى أن يحصّلوا كل أسباب القوة ، وهم يواجهون نظامًا عالميًا ، وقويً دولية لا تعرف إلا لغة القوة ، وما أحوجهم إلى القوة وهم يسعون إلى التمكين لهم ولدينهم في الأرض .

رابعاً : الإعداد

إن الإعداد يعتبر من أهم وسائل التمكين ، وقد أرشدنا إليه القرآن الكريم وأمرنا به ، فقال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [3].

والإعداد في حقيقته أخذ بالأسباب ، وإعداد القوة في الآية لفظ عام يشمل كل قوة، سواء أكانت مادية أم معنوية ، على مستوى الأفراد أو الجماعات ، كما وضحت الآية الكريمة أن الإعداد يحتاج إلى إنفاق هائل ،

---

[1] قارن آداب الحرب في الإسلام بما أحدثته أمريكا وبريطانيا في العراق من عودة نتربة شرسة على بلاد المسلمين .

[2] صحيح مسلم : كتاب القدر – باب في الأمر بالقوة ، وترك العجز .

[3] الأنفال : الآية (٦٠) .

وواعدت بالتعويض في الدنيا ، والجزاء في الآخرة ، لتحفز المسلمين ، وتحثهم على ذلك .

وسنة الأخذ بالأسباب من أهم السنن الربانية التي ترتبط بعلاقة مباشرة مع سنن التمكين ، لذلك يجب استيعابها والعمل بها .

وهي سنة مقررة في كتاب الله تعالى ، ولقد وجه الله عباده المؤمنين إلى وجوب مراعاة هذه السنة في كل شؤونهم ، الدنيوية والأخروية سواء ، قال تعالى : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [1].

إن الله سبحانه وتعالى جعل التمكين في الحياة يمضي بالجهد البشري ، وبالطاقة البشرية على سنن ربانية ثابتة ، وقوانين لا تتبدل ولا تتحول ، فمن يقدم الجهد الصادق ، ويخضع لسنن الحياة ، يصل على قدر جهده وبذله ، وعلى قدر سعيه وعطائه .

وكان المسلمون الأوائل يعرفون أن نصرهم وهزيمة أعدائهم يجري وفق سنة عادية ، تبذل فيها الجهود العظيمة ، ويستعمل العقل قواه بالتفكير والتدبير ، فلم يتقاعسوا أو يتواكلوا ، بل بذلوا النفس والنفيس من أجل نيل نصر الله ، وإلحاق الهزيمة بأعدائه .

وقد مضت سنة الله ، وشاء سبحانه أن يجري النصر وفق سنن عادية بتحقيق شروطه وتوفر أسبابه ، مع أن الله قوى عزيز قادر على أن ينصر الحق وحده ، ولكنها عقيدة الحق التي يشد الله بها الإنسان إليه سبحانه دون إغفال قوته الذاتية البشرية ، ودون إهمال ما في الأرض من قوة لنصرة الحق وتعمير الحياة بالعدل ، وفي عقيدة المؤمن أنه لا ينتصر ويتقدم ويزدهر ويسعد في هذه الحياة إلا وفق السنن العادية إلا ما شاء الله .

ولذلك لابد من البحث والإعداد والاعتماد على القوة الذاتية الإنسانية لتمكين وتعمير الأرض ، وازدهار المجتمعات [2].

والعمل بسنة الأخذ بالأسباب من صميم تحقيق العبودية لله تعالى ، وهو الأمر الذي خُلق له العبيد ، وأرسلت به الرسل ، وأنزلت لأجله الكتب ، وبه قامت السموات والأرض ، وله وجدت الجنة والنار ، فالقيام بالأسباب المأمور بها محض العبودية [3].

---

[1] التوبة : الآية (١٠٥) .

[2] انظر : العقل المسلم والرؤية الحضارية – عماد الدين خليل – دار الحرمين للنشر ، القاهرة – ص٥٠.

[3] انظر : مدارج السالكين – ابن قيم الجوزية – تحقيق محمد حامد الفقي – دار الكتاب العربي بيروت – جـ٢ – ص ١٣٠ .

وأمر التمكين لهذا الدين يحتاج إلى جميع أنـــواع القـــوى ، علـــى اختلافها وتنوعها ، ولذلك اهتم القرآن الكريم اهتماما كبيرا في إرشاد الأمـــة للأخذ به ، وأوجبه الله تعالى على الأمة ؛ لأن التمكين لهذا الديـــن طريقـــه الوصول إلى القوى بمفهومها الشامل .

والإسلام يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها ، فلابد للإسلام من قوة ينطلق بها في الأرض لتحرير الإنسان .

وأهمية القوة بالنسبة للدعوة الإسلامية تتلخص في أمور :

الأمر الأول : أن نؤمن الذين يختارون هذه العقيـــدة علـــى حريتـــهم فـــي اختيارها ، فلا يصدوا عنها ، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها .

الأمر الثاني : أن ترهب هذه القوة أعداء الإسلام ، فلا يفكروا في الاعتـــداء على حرمات الإسلام .

الأمر الثالث : أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء ألا يفكروا في الوقـــوف فـــي وجه الدين الإسلامي وهو ينطلـــق لتبليـــغ كلمـــة الله إلـــى الإنسان في كل الأرض .

الأمر الرابع : أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفـــة " الألوهية " من دون الله رب العالمين [1].

إن التغيير الإسلامي الذي تنشده الأمة لا يمكن تحقيقه مـــن غـــير جهاد دفاعي ، وبدون صياغة جيل مجاهد ، فالمهمة التغييرية مهمة شاقة ، فالقوى الظاهرة والخفية القابضة على الزمام في العالم قوى شريرة ، وقـــد هيأها أعداء الإسلام لهذا الدور من زمن بعيد ، وهي تعمل ليل نهار علـــى خفت صوت الإسلام بشتى الطرق والوسائل، وإزالة هذه القـــوى، وإقامـــة الإسلام مكانها ليس بالأمر السهل ، فهي ستتشبث بمواقعها حتـــى النفـــس الأخير ، وذلك يحتاج أولا وقبل كل شيء إلى تربية جهادية تخـــرج أنماطـــا من المجاهدين ، يحبون الموت كما يحب الناس الحيـــاة ، ويعيشـــون هـــم الإسلام وقضاياه ليلهم ونهارهم ، ولابد من بناء قاعدة صلبة متينة تستطيع أن تصمد في هذا الصراع الجبار ، وتقف في وجه المؤامرات ، وتجاهد فـــي كل المجالات والجبهات ، وتدفع ثمن التمكين لدين الله في الأرض من زهـــرة أبنائها الشهداء [2].

إن الواجب على الأمة الإسلامية اليوم لتنهض وتتقدم وترقـــى فـــي مصاعد المجد ، أن تجاهد بمالها ونفسها الجهاد الذي أمرهـــا الله بـــه فـــي

---

[1] في ظلال القرآن – جـــ٣ – ص ٣١٥٤ بتصرف .

[2] ركائز الإيمان بين العقل والقلب – ص ٧٥ .

القرآن الكريم مراراً عديدة ، فالجهاد بالمال والنفس هو العلم الأعلى الذي يهتف بالعلوم كلها ، فإذا تعلمت الأمة هذا العلم ، وعملت به ، دانت لها سائر العلوم والمعارف [1].

إن من أسباب التمكين : أسباب معنوية ، ومادية . ومن أهم الأسباب المعنوية : إعداد الأفراد الربانيين ، والقيادة الربانية ، ومحاربة أسباب الفرقة ، التي من أهمها : الابتداع ، والجهل ، واتباع الهوى ، وتحكيم العقل وتقديمه على النصوص الشرعية ، مما يؤدي إلى الاختلاف المذموم ، الذي يؤدي بطبعه إلى الفرقة والتشرذم .

ومن أسباب التمكين المعنوية : الأخذ بأصول الوحدة ، والاتحاد والاجتماع المتمثلة في وحدة العقيدة ، وتحكيم الكتاب والسنة ، وصدق الانتماء إلى الإسلام ، وطلب الحق والتحري في ذلك ، وتحقيق الأخوة بين أفراد المسلمين .

تلك بعض أسباب التمكين المعنوية والمادية التي نحتاج إليها من أجل الأخذ بالأسباب التي تؤدي إلى تمكين هذه الأمة وهذا الدين من حياة الناس عامة .

خامساً : الصبر

جعلت الحديث عن الصبر مرتباً في نهاية الحديث عن وسائل التمكين ، لأن كل وسيلة من وسائل التمكين السابقة محتاجة إلى الصبر ، ومستلزم له ، فلابد من الصبر على جهاد النفس ، وجهاد الغير ، والصبر على الأذى والمشقة ، والصبر على تعاليم الله ورسول ﷺ، والصبر على تبجح الباطل .

والصبر من أعظم الملكات والأحوال التي يمدحها القرآن الكريم ، ويكرر الأمر به حتى بلغ قريباً من سبعين موضعاً من القرآن ، فهو الزاد الذي لابد منه لمواجهة كل مشقة ، قال تعالى ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [2]، وقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [3].

وقد بلغ من أهميته أن صار صفة من أربع للفئة الناجية من الخسران ، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [4].

---

[1] لماذا تأخر المسلمون ، ولماذا تقدم غيرهم ؟ – ص ١٦٤ .

[2] البقرة : الآية (٤٥) .

[3] آل عمران : الآية (٢٠٠) .

[4] العصر : الآيات (١ – ٣) .

" والصبر من عناصر الرجولة الناضجة ، والبطولة الفارعة ، فإن أثقال الحياة لا يطيقها المهازيل ، ورسالة الحياة لا ينهض بها ولا ينقلها من طور إلى طور إلا رجال عمالقة ، وأبطال صابرون " [1].

والصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة ، فإن طريقها طويل شاق حافل بالعقبات، والأشواك ، مفروش بالدماء والأشواك ، وبالإيذاء والابتلاء .

والصبر مطلوب على أشياء كثيرة : على شهوات النفس ورغائبها وأطماعها ، وشهوات الناس وضعفهم وجهلهم وتقصيرهم وانحراف طبائعهم ، وعلى انتفاخ الباطل ووقاحة الطغيان ، وقلة الناصر وضعف المعين ومتاعب الطريق ، وعلى مرارة الجهاد والضيق ، وضعف الثقة أحياناً في الخير وضبط النفس في ساعة القدرة والانتصار والغلبة ، كل هذا مما يصادف السالك في هذا الطريق الطويل ، طريق التمكين لدين الله في الأرض .

والصبر – في مفهوم الإسلام – ليس معناه السلبية والقعود ، انتظاراً للفرج دون الأخذ بالأسباب ، ولقد صبر النبي ﷺ والمسلمون معه في مكة على البلاء في الوقت الذي سلك فيه كل السبل للبحث عن أرض خصبة ليهاجر إليها ، ويظهر فيها دعوته حتى كانت الهجرة إلى المدينة المنورة ، وإقامة الدولة الإسلامية .

والأمة الإسلامية وهي تتطلع إلى نصر الله وتمكينه ، فإن عليها أن تتسلح في مسيرتها – على طريق التمكين – بسلاح الصبر ، الذي كان سلاح الأمة الإسلامية في صدرها الأول حينما كان يقاسي المسلمون العذاب .

وعلى كل مسلم أن يوطن نفسه على احتمال المكاره دون ضجر ، وانتظار النتائج مهما بعدت ، ومواجهة الأعباء مهما ثقلت ، بقلب لم تعلق به ريبة ، وعقل لا تطيش به كربة . يجب أن يظل موفور الثقة ، بادي الثبات ، لا يرتاع لغيمة تظهر في الأفق ، ولو تبعتها أخرى وأخرى ، بل يبقى موقناً بأن بوادر النصر والصفو لابد آتية ، وأن من الحكمة ارتقابها في سكون ويقين [2].

وإن الصبر – على المحن والابتلاءات – مهما طال فسينتهي إلى النصر ، وستكون العاقبة للمتقين ، بعد جهاد مضن ، ومحن كثيرة . وهذا هو طريق الأنبياء عليهم السلام : دعوة . ابتلاء . صبر ، وفي النهاية

---

[1] خلق المسلم – محمد الغزالي – دار القلم – ص ١٦١ .
[2] خلق المسلم – ص ١٥٧ – بتصرف .

نصر مؤزر ، قال تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١).

أهداف التمكين ولوازم استمراره

قال تعالى : ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (٢).

إن الآية الكريمة تصرح بالنتائج التي تترتب على انتصار المؤمنين وتمكين دينهم، تبين أهداف هذا التمكين ، إنه ليس استعمار الشعوب، ولا أكل خيراتها ، ولا التهام ثرواتها، ولا إذلال كرامتها، وإنما هي نتائج لمصلحة الإنسانية ، ولفوائد المجتمعات فهي:

لنشر السمو الروحي في العالم عن طريق العبادة (أقاموا الصلاة) ، ولنشر العدالة الاجتماعية بين الشعوب عن طريق الزكاة (وآتوا الزكاة) ، ولتحقيق التعاون على خير المجتمع وكرامته ورقيه (وأمروا بالمعروف) ، وللتعاون على مكافحة الشر والجريمة والفساد (ونهوا عن المنكر) . تلك هي النتائج التي تترتب على تمكين المؤمنين من إقامة دولة إسلامية ، تعمل على سمو الروح ، وتكافل المجتمع ، ورقي الإنسان عن طريق الخير ، ومنع انحداره عن طريق الشر .

إن هدف التمكين للأمة وغايته يتمثل في قيادة الأمة لنفسها وللبشرية بكتاب الله تعالى ، الذي نهى عن الانحراف عن هذا المنهج الرباني إلى تشريع آخر ، هذا هو هدف وجود هذه الأمة ، والهدف من إقامة دولتها .

إقامة المجتمع السليم الذي تتحقق فيه العبودية الشاملة لله تعالى ، وتحقيق حكم الله في الأمة من خلال هذا المجتمع ، لأنه بذلك يتحقق التوحيد ، ويقوم الدين ، قال تعالى : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣).

وإن تحقيق حكم الله ، تمكين للعبودية ، وقيام بالغاية التي من أجلها خُلق الإنسان والجان،قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٤) ، وبذلك تجعل الدولة دستورها مستمداً من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وتستمد منها أمهات الأخلاق ، وأساسيات العقائد ، وتتناول كل مناشط حياة الناس ، الفردية والعامة من خلالهما .

إن لأهداف التمكين واستمراره شروطاً ذكرتها الآية وهي : إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وطاعة الرسول ﷺ ، والأمر بالمعروف والنهي عن

---

(١) هود : (٤٩) .
(٢) الحج : الآية (٤١) .
(٣) يوسف : الآية (٤٠) .
(٤) الذاريات :الآية (٥٦) .

المنكر . وهذه الشروط إجمال للإسلام كله ، فالصلاة عماد الدين ، وهي دليل الإسلام وعلامته ، وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر . والزكاة تراحم وتكافل ، ودفع لحاجات المحتاجين الذين حدد الله سبحانه وتعالى أنواعهم في سورة التوبة ، قال تعالى : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ [1]، **كما هي طهارة لقلب المزكي ، وطهارة لماله ، وطاعة الرسول ﷺ بكل ما أمر ، والانتهاء عن كل ما نهى ، وذلك الإسلام كله ، ويوضحه قوله تعالى :** ﴿ وعد الله الذين عامنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأ رض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون۞وأقيموا الصلاة وءاتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ﴾ [2]، **وستظل الطاعة للرسول ﷺ ، وإقامة الصلاة ،وإيتاء الزكاة،مصاحبة للتمكين لا ينفك عنها .**

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من صميم ما أمر به الرسول ﷺ به ، وهو عنوان خيرية هذه الأمة ، حتى إن الآية ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ [3]، **قدمته في الذكر قبل الإيمان ، لأن الإيمان والدين لا يحفظان في حياة المسلمين دون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومما يدل على ذلك أن بني إسرائيل عند إهمالهم لتلك الفريضة كان بداية لفقدهم رتبة التفضيل على ألسنة الرسل ، قال تعالى :** ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون۞كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ [4].

إن استمرارية التمكين تكمن في النفس الإنسانية الشاكرة ، كما قال تعالى : ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ [5]، **وكذلك في الإيمان والعمل الصالح ، قال تعالى :** ﴿ فأما الذين عامنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين

---

[1] التوبة : الآية (٦٠) .
[2] النور : الآيتان (٥٥ -٥٦) .
[3] آل عمران : الآية (١١٠) .
[4] المائدة : الآيتان (٧٨-٧٩) .
[5] إبراهيم : الآية (٧) .

استَنْكَفُوا وَاستَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا ﴾ (١).

والاستغفار والإنابة من أسباب استمرارية التمكين ، لأنه يزيد المؤمنين قوة ، قال تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ (٢).

هذه بعض سنن وعوامل استمرارية العزة والتمكين ، وموجبات زيادة النعم والحياة السعيدة للبشر ، وغيرها كثير كما هو مثبوت في آيات القرآن الكريم ، إذ كيف تطمع أمة اليوم أو غد بالاستخلاف والتمكين والتفوق والنصر والعزة ، وهي مخالفة سنن ذلك وشروطه ، وحال أهلها يصد عن سبيل الله .

إن التمكين لدين الله في الأرض إرادة إلهية كي يظهر هذا الدين الخاتم على الدين كله ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (٣).

وهو وعد من الله بما قضى وكتب ، أن الأرض سيؤول وراثتها للصالحين ، في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ۞إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ۞وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(٤). وليعلم الناس أن وعد الله حق ، ولتعلم كل أمة صالحة أنها نائلة حقها لا محالة .

فعلينا أن نعمل من أجل تحقيق شروط التمكين على وجهها الصحيح ، وأن نسلك طرق التمكين ، وأن نأخذ بأسبابه ووسائله ، وعندما تتمكن الأمة فعليها أن تحقق أهدافه ليكون ذلك سبباً في استمراره وبقائه .

الخاتمة :

- إن فقه التمكين يعني دراسة شروطه وأسبابه وأهدافه ومعوقاته ومقوماته من أجل رجوع الأمة إلى مكانتها الاستخلافية .
- إن السنن الربانية في الكون ثابتة ، وتقع على الإنسان في كل زمان ومكان .
- إن الاستخلاف في الأرض والتمكين لدين الله وعد من الله تعالى متى حقق المسلمون شروطه .
- إن من شروط التمكين : تحقيق الإيمان ، وممارسة العمل الصالح ، وتحقق العبادة في دنيا الناس بمفهومها الصحيح .

---

(١) النساء : الآية (١٧٣) .
(٢) هود : الآية (٥٢) .
(٣) الصف : الآية (٩) .
(٤) الأنبياء :الآيات (١٠٥-١٠٧) .

- إن الأخذ بالأسباب التي تؤدي إلى التمكين أمر أرشـــدنا إليـــه القـــرآن الكريم ، وحثنا على الأخذ به .
- إن مرحلة التمكين هي ذروة العمل المنظم للإسلام ، والثمرة الناضجـــة لمهمة الاستخلاف المنوطة بالأمة .

ولله الحمد من قبل ومن بعد ،،

المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم .
٢ - أين الخلل - يوسف القرضاوي - دار الصحوة القاهرة - الطبعة الأولى - ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م
٣ - البداية والنهاية - ابن كثير - دار الكتب العلمية بيروت - الطبعة الأولى - ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٤م
٤ - تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين - علي محمد محمد الصلابي - دار الإيمان الإسكندرية - طبع ٢٠٠٢م .
٥ - تفسير الطبري (المسمى جامع البيان عن تأويل القرآن) - ابن جرير الطبري - دار الفكر بيروت - ١٤٠٥هـ .
٦ - تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - دار المعرفة بيروت .
٧ - تفسير المنار - محمد رشيد رضا - دار المعرفة بيروت - الطبعة الثانية .
٨ - التبيان في أقسام القرآن - لابن القيم - مكتبة المتنبي القاهرة - بدون تاريخ .
٩ - التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم - محمد السيد محمد - دار السلام القاهرة - الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ، ١٩٩٧م .
١٠ - حتى يغيروا ما بأنفسهم - جودت سعيد - دار الثقافة للجميع، دمشق سوريا - الطبعة الثالثة - ١٣٩٥هـ ، ١٩٧٥.
١١ - خصائص المجتمع الإسلامي - محمد عبد الله الخطيب - دار التوزيع والنشر الإسلامية القاهرة - بدون تاريخ.
١٢ - خلق المسلم - محمد الغزالي - دار القلم - الطبعة السادسة - ١٤٠٦هـ .
١٣ - الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها - أبو الأعلى المودودي - دار الفكر الحديث لبنان - بدون تاريخ .
١٤ - دعوة الله بين التكوين والتمكين - علي جريشة - مكتبة وهبة - الطبعة الأولى - ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦ .
١٥ - ركائز الإيمان بين العقل والقلب - محمد الغزالي - دار الاعتصام القاهرة - الطبعة السادسة - ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م .
١٦ - سر تأخر العرب والمسلمين - محمد الغزالي - دار الصحوة القاهرة - الطبعة الأولى - ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥ .
١٧ - سنن أبي داود - سليمان بن الأشعث - دار المعرفة بيروت .
١٨ - سنن ابن ماجة - محمد بن يزيد القزويني - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار المعرفة بيروت .
١٩ - سنن الترمذي - أبو عيسى الترمذي - تحقيق أحمد شاكر - مصطفى الحلبي القاهرة - الطبعة الثانية - ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م .
٢٠ - سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها - محمد هيشور - المعهد العالمي للفكر الإسلامي القاهرة - ١٤١٧هـ ، ١٩٩٦م .

٢١ - سنن النسائي – أحمد بن شعيب – تحقيق عبد الفتاح أبو غدة – المطبوعات الإسلامية بحلب .
٢٢ - سيرة ابن هشام – تحقيق : مصطفى السقا وشركاه – دار الكتب العلمية بيروت – بدون تاريخ .
٢٣ - شرح الكوكب المنير– محمد بن أحمد الفتوحي– دار العبيكان الرياض السعودية– طبعة ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م .
٢٤ - شرح النووي على صحيح مسلم – للنووي – المطبعة المصرية وكتبتها بالقاهرة – ١٣٤٩هـ .
٢٥ - شروط النهضة – مالك بن نبي – ترجمة عبد الصبور شاهين – دار الفكر سوريا – ١٩٧٦م .
٢٦ - صحيح مسلم – لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري – تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي – دار المعرفة بيروت .
٢٧ - الطريق من هنا – محمد الغزالي – دار التوزيع والنشر القاهرة – الطبعة الأولى – ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م .
٢٨ - العبودية – لابن تيمية – دار المعارف الرياض – الطبعة الأولى – ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٣م .
٢٩ - العقل المسلم والرؤية الحضارية – عماد الدين خليل – دار الجرمين للنشر – القاهرة – بدون تاريخ .
٣٠ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري – ابن حجر العسقلاني – المكتبة السلفية ومطبعتها – الطبعة الثانية .
٣١ - فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد– عبد الرحمن بن حسن آل شيخ– المكتبة السلفية، المدينة المنورة – الطبعة الخامسة.
٣٢ - فقه الدعوة إلى الله – علي عبد الحليم محمود – دار الوفاء مصر – طبعة ١٤١٠هـ ، ١٩٩٠م .
٣٣ - فقه المسؤولية – علي عبد الحليم محمود – دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة – الطبعة الأولى – ١٤١٥هـ ، ١٩٩٥م .
٣٤ - في ظلال القرآن – سيد قطب – دار الشروق القاهرة – الطبعة الخامسة عشر – ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٢م .
٣٥ - الفوائد – ابن قيم الجوزية – دار الدعوة الإسكندرية .
٣٦ - قادة الغرب يقولون : دمروا الإسلام ، أبيدوا أهله – جلال العالم – مؤسسة الرسالة – بيروت لبنان – طبعة ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م .
٣٧ - لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام والعصر – يوسف القرضاوي – مكتبة وهبة، القاهرة – الطبعة الأولى– ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م .
٣٨ - لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم – الأمير شكيب أرسلان – دار النشر القاهرة – مصر – بدون تاريخ.
٣٩ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين – أبو الحسن الندوي – مكتبة الدعوة – القاهرة – ١٤٠٢هـ ، ١٩٩٣م .

٤٠ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين - ابن قيم الجوزية - تحقيق محمد حامد الفقي - دار الكتاب العربي بيروت - ١٣٩٢هـ .
٤١ - مجموع الفتاوى - لابن تيمية - جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي وابنه .
٤٢ - مشكلات في طريق الحياة الإسلامية - محمد الغزالي - دار البشير، القاهرة - الطبعة الأولى - بدون تاريخ .
٤٣ - مفاتيح الغيب " التفسير الكبير " - الفخر الرازي - دار الغد العربي، القاهرة - الطبعة الأولى .
٤٤ - مفاهيم يجب أن تصحح - محمد قطب - دار الشروق - القاهرة - الطبعة الثامنة - ١٤١٣هـ ، ١٩٨٩م .
٤٥ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقي - دار الحديث، القاهرة - ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م.
٤٦ - المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية بالقاهرة - بدون تاريخ - الطبعة الثالثة .
٤٧ - المفردات في غريب القرآن- الراغب الأصفهاني - تحقيق محمد السيد كيلاني - دار المعرفة، بيروت لبنان .
٤٨ - الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية - محماس عبد الله الجعلود - دار اليقين، المنصورة، مصر - الطبعة الأولى - ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م .
٤٩ - هل نحن مسلمون ؟ - محمد قطب - دار الشروق، القاهرة - ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٨م .
٥٠ - واقعنا المعاصر- محمد قطب- مؤسسة المدينة المنورة السعودية- الطبعة الثالثة - ١٤١٠هـ ، ١٩٨٩م .